الإمام ابن تيمية ومنهجه في العقيدة

إيمان محمد أمين حسن بني عامر

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، أما بعد:

فقد اكتظ التاريخ الإسلامي بالكثير من سير الأبطال والعظماء الذين كان لهم دور كبير في الدفاع عن الإسلام والمسلمين في وقت كان العالم الإسلامي كله غارقاً في الجهل، وعمت فيه الفوضى والفساد، وكثر فيه الجدل حول صفات الله وخلق أفعال العباد وخلق القرآن والخلاف حول مرتكب الكبيرة، فاختلف الناس حول هذه المسائل وأمثالها ونشأت الفرق وتعددت وعمد البعض إلى تأويل آيات القرآن ليتناسب مع أهوائهم.

وكان لكل هذا خطر عظيم على الإسلام والمسلمين، وكانوا بأمسّ الحاجة إلى من يجدد إيمانهم، فكانت رحمة الله بأن بعث فيهم الإمام ابن تيمية، فكان له دور كبير في الذود عن الإسلام في عصر كثرت فيه الاضطرابات، فأظهر الحق وآياته، مستهيناً بكل ما لحق به من الأذى والمحن، في سبيل تحقيق هدفه النبيل وهو الذود عن العقيدة الإسلامية، فتتبع الانحرافات العقائدية أينما كانت، ودحضها بالحجة والبرهان الساطع.

وقد أحببت أن أخصص هذا البحث للحديث عن حياة هذا العالم كشخصية فذة، ومنهجه الذي اتبعه في إثبات العقيدة الإسلامية والرد على الفرق المخالفة، فجاء هذا البحث في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وأخيراً أشكر كل من ساعدني بمدّ يد العون لي من أجل إتمام هذا العمل، وإني لأرجو من الله تعالى التوفيق لي ولجميع المسلمين، سائلاً المولى أن يعينني على كل خير.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الفصل الأول: الجانب الشخصي من حياة ابن تيمية:

المبحث الأول: اسمه ومولده، موطنه، نشأته وأسرته:

أولاً: اسمه ومولده:

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي، ولد في العاشر من ربيع الأول يوم الاثنين سنة ٦٦١هـ، بحران(١).

ثانياً: موطنه:

ولد ابن تيمية في حران "بتركيا" الآن، وهي مدينة عظيمة مشهورة، وفتحت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض بن غنم، وينسب إليها جماعة كثيرة من أهل العلم، كما سمي بهذا الاسم كثير من البلدان غيرها مثل: حران من قرى حلب، وحران الكبرى وحران الصغرى: قريتان بالبحرين، وحران قرية بدمشق(٢).

ثالثاً: نشأته وأسرته:

نشأ ابن تيمية في أسرة دينية، عرفت بنزعتها إلى الورع والتقى وحرصها على التزوّد من علوم الفقه والدين، وتتابع المعرفة الحقة والعلم الصحيح، فجده أبو البركات مجد الدين من أئمة المذهب الحنبلي، وسمي بالمجتهد المطلق، وظهر تفوقه على علماء حران وبغداد، وتخرج عليهم، ووالده "عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين عبد الله بن عبد الله بن أبي القاسم ابن تيمية الحراني، ولديه فضائل كثيرة وكان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظهر قلبه، وولي مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين وبها كان سكنه"(٣)، وأمه هي الشيخة الصالحة ست النعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية، عمرت فوق السبعين.

فنشأ ابن تيمية في أسرة شغوفة بالعلم أباً عن جد، فكان طبيعياً أن يتجه ابن تيمية إلى العلم.

ولقد عاش الإمام أحمد بن تيمية في كنف أبيه، وتحت رعايته، ثم رحل عام ٦٦٧هـ مع أبيه

١- ابن كثير، **البداية والنهاية**، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج ١٣، ص ٢٤١.

٢- محمد حربي، **ابن تيمية وموقفه من أهم الفرق والديانات في عصره**، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٢٨.

٣- ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ٣٠٣، انظر: أحمد القطان والزين محمد، **شيخ الإسلام أحمد تقي الدين ابن تيمية**، مكتبة السندس، ص ٤٦.

وإخوته إلى دمشق، وكانت جيوش التتار قد قدمت إلى الشام، وكادت أسرة ابن تيمية أن تتعرض لخطر التتار الزاحف على الشام لولا عناية الله، فرحلوا وحملوا معهم متاعهم وما لديهم من كتب العلم والدين على مركبة تجرّها الأيدي، وما إن وصلت هذه الأسرة العلمية إلى دمشق حتى وجدت المكان رحيباً فسيحاً لها بين أقرانها من أهل العلم والمعرفة، وبدأ والد ابن تيمية بالتدريس في الجامع الأموي في دار الحديث السكرية بالقصاعين التي لم يفارقها إلا إلى مثواه الأخير(٤).

المبحث الثاني: طلبه للعلم وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته ومزاياه:

أولاً: طلبه للعلم.

لما استقر ابن تيمية في دمشق سارع إلى حفظ القرآن والحديث وعلوم اللغة وآدابها ونحوها، ثم اتجه إلى دراسة الأحكام الفقهية والعلوم الدينية، عن طريق البحث والتنقيب، كما عني مع دراسته للعلوم بالخط والحساب والعلوم الرياضية وتلقاها من أساتذتها.

يقول ابن الوردي: "وكان للشيخ خبرة تامة بالرجال رواة الحديث، وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث وبالعالي والنازل والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال أن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف فيه من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي"(٥). كما درس علم الكلام وتعمق في هذه العلوم العقلية، وتصدى للرد على هذه العلوم وانتقادها وحارب أعداء الإسلام من يهود ونصارى وفلاسفة وباطنية بسلاحهم وردّ عليهم من خلال مذاهبهم وأفحمهم وأثبت تفوقه عليهم ورفع راية الإسلام عالياً.

قال عنه الذهبي في **العقود الدرية**: "كان يحضر المدارس والمحافل في صغره ويناظر ويفحم الكبار، يأتي بما يتحير عنه أعيان البلد في العلم فأفتى وله تسع عشرة سنة، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت".

وما كاد ابن تيمية يبلغ من العمر الحادية والعشرين حتى توفي والده عبد الحليم، فقيه الحنابلة ومحدثهم سنة ٦٨٢هـ، وأحدث فراغاً عظيماً في المدرسة فخلفه فيها ابنه تقي الدين أبو العباس ابن تيمية

٤- سعد صادق محمد، **شيخ الإسلام ابن تيمية إمام السيف والقلم**، دار اللواء، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٦، والقطان والزين، **شيخ الإسلام أحمد تقي الدين بن تيمية**، ص ٤٨.

٥- القطان والزين، **شيخ الإسلام أحمد تقي الدين بن تيمية**، ص ٤٩.

وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين.

وكان يجلس بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هُيِّئ له لتفسير القرآن العزيز، واستمع لابن تيمية خلق كثير من تلاميذه وأعدائه من أهل السنة والشيعة وأصحاب الفرق الضالّة فكثر سامعوه وكثر التحدث باسمه في المجالس العلمية(٦).

وكان قد سمع **مسند الإمام أحمد بن حنبل** مرات وسمع الكتب الستة الكبار، وسمع **معجم الطبراني الكبير**، ومما يدل على قوة علمه وسرعة حفظه وانتشار صيته في البلاد، أن بعض العلماء الكبار بحلب قدم إلى دمشق فصادف خياطاً في حانوته فقال له: سمعت في البلاد بصبي يقال له "أحمد ابن تيمية وأنه سريع الحفظ وقد جئت إليه قاصداً لعلي أراه. قال له الخياط: هذه طريق كُتّابه، وهو الآن ما جاء، فاقعد عندنا، الساعة يجيء يَعبُر علينا ذاهباً إلى الكتّاب.

فجلس الشيخ الجليل قليلاً، فمر صبيان، فقال الخياط للحلبي ذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية! فناداه الشيخ فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح فنظر فيه ثم قال يا ولدي: امسح هذا حتى أملي عليك شيئاً تكتبه ففعل فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً فقال: إقرأ هذا فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه ثم دفعه إليه وقال: اسمعه فقرأ عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع، فقال له الشيخ: امسح هذا، ففعل فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال: إقرأ هذا، فنظر فيه، كما فعل أول مرة، فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم فإن هذا لم ير مثله(٧).

ولقد نشأ ابن تيمية منذ صغره بين العلماء وفي مهد العلم راتعاً في رياض الكتب النافعة، صارفاً أوقاته في الدراسة والمطالعة مركِّزاً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد وهبه الله فكراً ثاقباً ولساناً ناطقاً، وقد تمكن بفكره من العلوم والمعارف حتى أثنى عليه معاصروه والذين جاؤوا بعده.

يقول ابن كثير: "فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالماً باختلاف العلماء، عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفاً به متقناً له،

٦- ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ٣٠٣.

٧- محمد أبو زهرة، **ابن تيمية: حياته وعصره، آراؤه وفقهه**، دار الفكر العربي، ص ٢١.

وأما الحديث فكان حامل رايته حافظاً له مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله متضلعاً من ذلك، وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع، كمل منها جملة وبيضت وكتبت عنه وقرئت عليه أو بعضها، وجملة كبيرة لم يُكملها وجملة كملها ولم يبيض إلى الآن"[٨].

ثانياً: شيوخه:

لقد تلقى ابن تيمية العلم على والده الشيخ عبد الحليم وكان قد سمع الحديث من ابن عبد الدائم وابن أبي اليسر وابن عبدان والشيخ شمس الدين الحنبلي، والشيخ شمس الدين بن عطاء الحنفي، والشيخ جمال الدين بن الصيرفي، ومجد الدين ابن عساكر والشيخ جمال الدين البغدادي والنجيب ابن المقداد، وابن أبي الخير، وابن علان وابن أبي بكر اليهودي، والكمال عبد الرحيم والفخر علي وابن شيبان والشرف بن القواس، وزينب بنت مكي، وخلق كثير سمع منهم الحديث، وقرأ بنفسه الكثير وطلب الحديث وكتب الطباق والاثبات ولازم السماع بنفسه مدة سنين[٩].

وقيل: إن شيوخه الذين سمع منهم، أكثر من مائتي شيخ[١٠]، كلهم دماشقة، وجلهم حنابلة، ومجموع من سمي منهم ستة وثلاثون شيخاً[١١].

ثالثاً: تلاميذه:

لقد كثر تلاميذه وتعددوا وذلك لكثرة تنقله بين مصر والشام، وتنقله في مصر بين الإسكندرية والقاهره. ولقد قسم الشيخ محمد أبو زهرة دروسه إلى قسمين، هما:

النوع الأول: دروس عامة يلقيها على العامة في المسجد الجامع يرشدهم بها ويبين لهم الاتباع وحقيقته، ويجنبهم الابتداع.

النوع الثاني: دروس خاصة يلقيها على تلاميذه الذين اختصوا بعظم المدارك وصلحوا لأن يكونوا ورثته في علمه من بعده والقائمين على تركته الفكرية وخلفاءه فيها، وهؤلاء هم الذين كان

٨- ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٤، ص ١٣٧.

٩- المرجع السابق، ج ١٤، ص ١٣٦.

١٠- أبو زهرة، **ابن تيمية**، ص ٢٢.

١١- أبو زيد بكر بن عبد الله، **المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال**، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٢هـ، ص ١٨.

يلقي عليهم كل تفكيره ومنهاجه في مدارس الشام، وبعض الاجتماعات الخاصة في مصر والشام[١٢].

ومن أشهر هؤلاء التلاميذ:

١- قاضي القضاة بهاء الدين ابن الزكي الشافعي.

٢- الشيخ تاج الدين الفزاري شيخ الشافعية.

٣- الشيخ زين الدين ابن المرحل.

٤- زين الدين بن المنجا الحنبلي.

٥- الشيخ الإمام المقرئ علاء الدين بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن هبة الله الكندي الإسكندراني، توفي سنة ٧١٦هـ.

٦- الفقيه الناسك شرف الدين الحراني المعروف بابن النجيح، توفي سنة ٧٢٣هـ.

٧- شرف الدين أبو عبد الله أخو قاضي القضاة علاء الدين، توفي ليلة الاثنين رابع شوال سنة ٧٢٤هـ.

٨- الشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني، وهو رجل فاضل له مصنفات منها **شرح مختصر ابن الحاجب**.

٩- الشيخ عبد الله بن موسى أحمد الجزري، وكان من الصالحين الكبار، توفي يوم الاثنين ٢٠ صفر سنة ٧٢٥هـ.

١٠- البدر العوام وهو محمد بن علي الحلبي، كان طيب الأخلاق، توفي سنة ٧٢٥هـ.

١١- ابن قيِّم وهو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية.

١٢- ومن النساء الشيخة الصالحة العابدة الناسكة ـ أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح ابن محمد البغدادية، وكانت من العالمات الفاضلات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر[١٣].

رابعاً: مؤلفاته:

خلف لنا الإمام ابن تيمية تراثاً ضخماً تتناقله الأجيال، ينبع بالعلم والمعرفة ويفيض بالخير والهدى، لأنه سار فيه على نهج الكتاب والسنة والسلف الصالح.

لقد كان ابن تيمية بحراً زاخراً من العلم والمعرفة، تلقى علوم عصره بالدرس الواسع،

١٢- أبو زهرة، **ابن تيمية**، ص ٥٢٥.

١٣- محمد حربي، **ابن تيمية وموقفه من أهم الفرق والديانات في عصره**، ص ٣٨-٣٩.

والتمحيص الدقيق، ثم أحاط معرفة وخبرة بعلوم الكلام والمنطق والتصوف والفلسفة، وردّ على مخالفيه وخصومه برسائل صغيرة، أو بكتب مطولة، فترك لنا عدداً ضخماً من المؤلفات قدره من ترجموا له بأنه وصل خمسمائة مجلد(١٤).

ولقد بدأ التأليف وهو ابن سبع عشرة سنة، وهذا من البدايات المبكرة، الدالة على نبوغه وتأهله للاجتهاد والتجديد والإمامة في العلم والدين(١٥).

يقول الدكتور عبده الراجحي الفريوائي: "إن المؤلفات التي وصلت إلينا مطبوعة أو مخطوطة، وصل إلينا من أسمائها ما يبلغ ٥٩١ مؤلف وفيها ١٠٢ كتاب يتعلق بالتفسير وعلومه، و٤١ كتاباً في الحديث وعلومه، و١٣٨ كتاباً في الفقه والفتاوى، و٢٢٨ في أصول الفقه، و١٢٦ كتاباً في العقائد والكلام، و٧٨ كتاباً في الرد على المنطق والفلسفة و٧ رسائل وجهها إلى بعض الأمراء والسلاطين وإلى بعض وجهاء البلدة ومشايخها ويشتمل ٥٤ كتاباً على علوم متفرقة(١٦).

ومن هذه المؤلفات ما يلي:

١. **كتاب الاستقامة.**
٢. **كتاب اقتضاء الصراط المستقيم.**
٣. **كتاب الفرقان.**
٤. **شرح الأصبهانية.**
٥. **الرسالة الحموية.**
٦. **الرسالة التدمرية.**
٧. **الرسالة الواسطية.**
٨. **الرسالة الكيلانية.**
٩. **الرسالة البغدادية.**
١٠. **الرسالة البعلبكية.**
١٢. **رسالة الأكليل.**
١٣. **رسالة مراتب الإرادة.**
١٤. **رسالة القضاء والقدر.**
١٥. **بيان الهدى من الضلال.**
١٦. **معتقدات أهل الضلال.**
١٧. **معارج الوصول.**
١٨. **السؤال عن العرش.**
١٩. **بيان الفرقة الناجية.**
٢٠. **نقض المنطق.**
٢١. **الرد على المنطقيين.**

١٤- أبو زهرة، **ابن تيمية**، ص ٥١٠.

١٥- أبو زيد ، **المداخل إلى آثار شيخ الإسلام**، ص ٢٠.

١٦- عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، **بحوث الندوة العالمية عن شيخ الإسلام ابن تيمية وأعماله الخالدة**، دار الصميعي، ط ٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٦٥.

١١. **الرسالة الأزهرية.**

٢٢. **التخجيل لمن بدل التوراة والإنجيل.**

٢٣. **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية.**

٣٢. **الفرق بين الحق والبطلان.**

٢٤. **الصارم المسلول على شاتم الرسول.**

٣٣. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.**

٢٥. **الكلم الطيب.**

٣٤. **الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن.**

٢٦. **المحرر في فروع الحنبلية.**

٣٥. **الحسبة في الإسلام.**

٢٧. **المهذب لابن تيمية.**

٣٦. **تفسير سورة البقرة.**

٢٨. **إثبات الصفات والعلو والاستواء.**

٣٧. **تفسير سورة يوسف.**

٢٩. **الاجتماع والفراق في مسائل الإيمان والطلاق.**

٣٨. **تفسير سورة النور.**

٣٠. **التحرير في مسألة جفير.**

٣٩. **تفسير المعوذتين.**

٣١. **الجواب الباهر في زوار المقابر.**

٤٠. **رفع الملام عن الأئمة الأعلام**[١٧].

هذه هي بعض مؤلفات الإمام الراحل ابن تيمية التي تركها لتكون منهلاً عذباً، ومورداً صافياً نقياً لطلاب العلم والمعرفة، ومرجعاً هاماً في الأحكام والشرائع ومختلف الأمور التي تهم المجتمع الإسلامي المعاصر في كل جانب من جوانب حياته.

المبحث الثالث: المحن التي مر بها، ووفاته رحمه الله:

المحنة الأولى:

وقعت دمشق عام ٦٩٣هـ لمدة قليلة، بسبب واقعة عسّاف النصراني، الذي شهد عليه جماعة أنه سبَّ النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بلغ الخبر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، اجتمع هو والشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث، فدخلا على نائب السلطان بدمشق، عز الدين أيبك الحموي فطلب النائب إحضاره، فحضر عسّاف ومعه مجيره "أمير آل علي" فضربهما الناس بالحجارة، لهذا طلب النائب الشيخين: ابن تيمية والفارقي، فضربهما بين يديه، ورسَّم عليهما بالعذراوية ثم استدعاهما النائب وأرضاهما، وادعى النصراني الإسلام، ثم قتل في طريقه إلى الحجاز، قتله ابن أخيه.

وعلى إثر هذه الواقعة ألف شيخ الإسلام: **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، وقد نفع الله أهل

١٧- أبو زهرة، **ابن تيمية**، ص٥١٠-٥١٤، سعد صادق محمد، **ابن تيمية**، ص٢٢١-٢٢٣، حربي، **ابن تيمية**، ص٤٩-٥٥، عبد السلام هاشم حافظ، **الإمام ابن تيمية**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص١٥١-١٦٠.

الإسلام بهذا الكتاب وكسر به المرجئة ونصر به السنة[١٨].

المحنة الثانية:

في القاهرة لمدة عام وستة شهور من يوم الجمعة ٢٦ رمضان ٧٠٥ هـ، سجن في برجٍ أياماً، ثم نقل إلى الجب بقلعة الجبل ليلة العيد ١ شوال ٧٠٥هـ ومعه أخواه الشرف عبد الله والزين عبد الرحمن، واستمر إلى يوم الجمعة ٢٣ ربيع الأول ٧٠٧هـ، وكان خادمه وتلميذه إبراهيم الغياني من المرافقين له في سفره هذا إلى مصر.

وهي بسبب مسألة العرش ومسألة الكلام ومسألة النزول وفيها من المواقف البطولية، والصدق في ذات الله ما يملأ النفس بالإيمان والجد في العمل.

وكان مما جرى فيها أن أخاه الشرف، ابتهل ودعا الله عليهم في حال خروجهم، فمنعه الشيخ وقال له: بل قل: "اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق"[١٩].

المحنة الثالثة:

بمصر لمدة أيام قليلة ابتداء من ٣ شوال ٧٠٧هـ بسبب استعداء السلطة عليه من المتصوفة بالقاهرة، لمنعه الاستعانة والتوسّل بالمخلوقين، وكلامه في ابن عربي الحاتمي الصوفي، فعقد له مجلس فاختلف الحضور بين براءته وإدانته، وكان في طرف الإدانة القاضي البدر ابن جماعة.

عندئذ خيّر بين أمور ثلاثة: العودة إلى دمشق، أو البقاء بالإسكندرية بشروط، أو الحبس فاختار الحبس، فألحّ عليه جماعة من رفاقه ليسير معهم إلى دمشق ويقبل الشروط، فوافقهم فركب خيل البريد ليلة ١٨ شوال ٧٠٧هـ.

وبسببها ألف كتابه في الاستغاثة المعروف باسم: **الرد على البكري**[٢٠].

المحنة الرابعة:

بمصر في قاعة الترسيم من آخر شهر شوال سنة ٧٠٧هـ إلى أول سنة ٧٠٨هـ أي لمدة تزيد عن شهرين.

ذلك أنه لما اختار بعد السجنة الثالثة السفر إلى دمشق بشروط، ردوه من مثاني الطريق يوم ليلة

١٨- بكر بن عبد الله أبو زيد، **المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال**، ص ٣٢-٣٣.

١٩- المرجع السابق، ص ٣٣-٣٤.

٢٠- المرجع السابق، ص ٣٤.

سفره ١٨ شوال ٧٠٧هـ بمشورة نصر المنبجي الحلولي، الذي له مكانة عند الوالي، فعُرض الشيخ على قضاة المالكية، فاختلفوا، فلما رأى الشيخ ذلك قال: "أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة" فعكف عليه الناس زيارةً وتعلماً واستفتاءً[٢١].

المحنة الخامسة:

الترسيم عليه بالإسكندرية في ١ ربيع الأول ٧٠٩هـ إلى ٨ شوال ٧٠٩هـ دون مرافق معه تحت نظر الولاية، وهذه مكيدة أخرى من نصر المنبجي والجاشنكير، يتربصان من يغتاله، وفي هذه الحال جاء عنده بعد أيام شمس الدين بن سعد الدين الحراني، وأخبره أنهم يسفرونه إلى الإسكندرية وجاءت المشايخ التدامرة وأخبروه بذلك، وقالوا له: كل هذا يعملونه حتى توافقهم، وهم عاملون على قتلك أو نفيك أو حبسك، فقال لهم: "أنا إن قتلت كانت لي شهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص دعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبداً، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت، تقلبت على صوف" فيئسوا منه وانصرفوا.

وما هي إلا شهور ويتولى الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٩هـ فأفرج عن الشيخ واستدعاه للقاهرة، وقتل الجاشنكير شر قتلة، وحمل نصراً المنبجي ومات في زاويته، وأراد الناصر أن ينتقم من القضاة والفقهاء الذين كانوا يوالون الجاشنكير، فاستفتى شيخ الإسلام ابن تيمية، ففهم الشيخ مقصوده، فشرع في مدحهم والثناء عليهم، وأنهم لو ماتوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حل من جهتي.

وكان القاضي ابن مخلوف المالكي يقول بعد ذلك: "ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نُبق ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا" عندئذ نزل الشيخ القاهرة، وسكن بالقرب من مشهد الحسين رضي الله عنه، والخلق على اختلاف طبقاتهم يترددون عليه، وهو يقول: "أنا أحللت كل من آذاني ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه".

واستمر إلى أن قدم دمشق صحبة السلطان لملاقاة التتر في ٨ شوال ٧١٢هـ أي بعد غيبة في مصر دامت نحو سبع سنين، سجن ورسم عليه خلالها أربع مرات، استغرقت نحو سنتين ونصف، وكان أخواه معه حتى عاد إلى دمشق.

٢١- المرجع السابق، ص ٣٥.

وحصل خلال إقامته هذه بمصر خير كثير، ونشر للعلم عظيم، وفيها كانت جملة كبيرة من مؤلفاته منها: **منهاج السنة النبوية والاستقامة وتلبيس الجهمية والفتاوى المصرية** وغيرها كثير(٢٢).

المحنة السادسة:

حدثت بدمشق لمدة خمسة أشهر وثمانية وعشرين يوماً، من يوم الخميس ١٢ رجب ٧٢٠هـ إلى يوم الاثنين ١٠ محرم ٧٢١هـ بسبب مسألة الحلف بالطلاق، وانتجت هذه مجموعة كبيرة من الكتب والفتاوى والردود الحافلة، منها: **الرد الكبير على من اعترض عليه في مسألة الحلف بالطلاق**(٢٣).

المحنة السابعة وهي الأخيرة وفيها خاتمة حياته المباركة:

حدثت بدمشق لمدة عامين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً، ابتداء من يوم الاثنين ٦ شعبان ٧٢٦هـ إلى ليلة وفاته رحمه الله تعالى ليلة الاثنين ٢٠ ذي القعدة ٧٢٨هـ، بسبب مسألة الزيارة، وانتجت تآليف كثيرة منها كتابه: **الرد على الإخنائي**.

وفيها حصل له من الفتوح الربانية بالعلم والعبادة، ما يبهر العقول، وصدر منه من الكتب والرسائل والفتاوى العجب العجاب، مع أنه في آخر وقته منع القلم والدواة والكتب الرقاق(٢٤).

وفاته رحمه الله:

بعد أن خاض رحمه الله المعارك الضارية مع معاصريه الذين خالفوه في عقائدهم وأفكارهم، وكثر أعداؤه من شتى الطوائف، فكان له خصوم من غلاة الصوفية الذين حارب شيخ الإسلام تواكلهم وغلوهم في الزهد، وخروجهم من منهج الكتاب والسنة، ومن المتكلمين الذين كره تأثرهم بمصادر أجنبية وإدخالهم في العقيدة الإسلامية من الضلالات التي لا تمت إليها بصلة، ومن الفقهاء الذين جمد تفكيرهم وركنوا إلى التقليد الجامد وقفلوا في وجوههم أبواب الكتاب والسنة.

ثار الأعداء والخصوم على شيخ الإسلام فلفقوا له التهم الكاذبة ولكن إيمانه العميق أمده بصبر شديد على ما ابتلي به من المحن ومنعه من التدريس والإفتاء وسجنه، فلا يكاد يخرج من السجن إلا ويعود إليه، فقضى سنوات طويلة معاقباً بالحبس في سجون دمشق والقاهرة والإسكندرية.

ولما سجن في مصر بحبس القضاة بحارة الديلم، صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً

٢٢- المرجع السابق، ص ٣٥-٣٦.

٢٣- المرجع السابق، ص ٣٧.

٢٤- المرجع السابق، ص ٣٧.

من كثير من الزوايا والربط والخوالف والمدارس، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه حتى صار السجن يمتلئ منهم.

وقد ذكر ابن الوردي وغيره: أنه ورد مرسوم السلطان بسجنه بقلعة دمشق، فأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين، وكتب في تفسير القرآن الكريم جملة كبيرة، وظهر بعض ما كتبه واشتهر، وآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا دواة ولا قلماً ولا ورقة، وكتب عقيب ذلك بفحم، يقول: إن إخراج الكتب من عنده من أعظم النعم، وبقي أشهراً على ذلك وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد.

ومما قال وهو في حبسه: ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة، وقال: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه.

مرض رحمه الله أياماً يسيرة، وتوفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، وغسل وكفن وأخرج وصلي عليه أولاً بالقلعة، ثم صلي عليه بجامع دمشق عقيب صلاة الظهر، ولم يتخلف أحد من الناس فيما قالوا غير ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم، ولم ير لجنازة أحد ما رئي لجنازته من الوقار والهيبة والعظمة والجلالة، وتعظيم الناس لها وتوقيرهم إياها.

ودفن في ذلك اليوم، ورثاه كثير من الفضلاء بقصائد متعددة، وتناوب الناس قبره للصلاة عليه من القرى والأطراف والأماكن والبلاد، وصلي عليه في أرض مصر والشام والعراق وتبريز والبصرة وقراها وغيرها(٢٥).

الفصل الثاني: الأحوال التي عاش فيها ابن تيمية:

عاش في عصر ابتلي فيه المسلمون بفتن من الداخل والخارج لم يسبق أن ابتلوا بمثلها، في عصر حالك أسود متلاطم بأمواج الضعف والفساد والانحراف، وإن للعصر الذي يعيشه العالم الأثر الذي يوجهه، فإن كان العصر فاسداً فسد الرجل، وإن كان صالحاً صلح، وقد يكون التأثير عكسياً، فكثرة الفساد تحمل على التفكير الجدي في الإصلاح، وكثرة الشر تحمل على استحصاد العزائم للخير، فمن أجل ذلك لا بد من التعرض بالحديث عن العصر الذي عاش فيه ابن تيمية من النواحي:

٢٥- محمد لقمان السلفي، **بحوث الندوة العالمية عن شيخ الإسلام**، ص ١٢٠-١٢١.

١- الناحية السياسية.

٢- الناحية الاجتماعية والاقتصادية:

٣- الناحية العلمية والفكرية.

المبحث الأول: الناحية السياسية:

لقد شهد العالم الإسلامي أحداثاً كثيرة، كان أبرزها هو اكتساح التتار للبلاد الإسلامية والقضاء على الخلافة العباسية، إضافة إلى الأثر السيئ الذي خلفه الاحتلال الصليبي لبلاد الشام وما حولها طيلة قرنين من الزمان، وكان على أولي الأمر القيام بأمرين متلازمين، أحدهما: رد الخطر الخارجي للتتار والصليبيين، والآخر: التوحيد الداخلي لصف الأمة(٢٦).

يقول ابن الأثير في الأحداث التي وقعت سنة ٦١٧هـ: "لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها: هؤلاء التتر، قبحهم الله، أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، ومنها: خروج الفرنج، لعنهم الله، من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وامتلاكهم ثغرها أي دمياط وأشرفت ديار مصر وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم، ومنها: أن السيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة".

ويقول أيضاً في وصف التتار، وما كان منهم في القرن السابع: "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، وهأنذا أُقدِّم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً"(٢٧).

إن هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ... هؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول

٢٦- إبراهيم عقيلي، **تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٧٦.

٢٧- انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ج ١٢، ص ٣٦٠.

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها، وسارت في البلاد كالرياح استدبرته الريح..."(٢٨).

المبحث الثاني: الناحية الاجتماعية والاقتصادية:

كان المجتمع الذي عاش فيه ابن تيمية عبارة عن خليط من الأجناس والعناصر التي تدين بأديان ونِحَل مختلفة، وتمارس عادات وطقوساً متعددة، وقد تسببت الحروب الصليبية، والغزو التتري للبلاد الإسلامية في خلق حالة نفسية وفكرية مضطربة، تمثلت في نزوح أقوام كثيرة من بلدانها خوفاً من بأس التتار، فغصت بلاد الشام ومصر بهؤلاء النازحين من خراسان وفارس والعراق وبلاد الترك، كما غصت من قبل بالفرنجة الذين يحتلون مناطق بالشام، وأيضاً بالأسرى من التتار عقب انهزامهم في المعارك التي خاضها ضدهم الملك المظفر قطز، والظاهر بيبرس، والناصر قلاوون.

وفي مجتمع كهذا، من الطبيعي أن يشيع الانحلال الخلقي والظلم، ويكثر فيه المكر والدسائس، وقد ساعد الجهل بدوره على تفشي البدع في صفوف العامة من المسلمين وكان للتصوف دخل في ذلك، إذ حملت بعض طرقه عناصر وأفكاراً غريبة، مستقاة من التصوف الهندي والمسيحي، وممتزجة بآراء فلسفية محضة، فصارت لها صبغة إسلامية حتى أصبح من الصعب وضع حد فاصل بين ما هو إسلامي أصيل وما هو دخيل.

ومما ساعد على انتشار التصوف المبتدع:

١- موقف المذهب الأشعري من التصوف، إذ أقر الكرامات، ومال إلى مذهب الجبرية فقلت ملاحظة الأوامر والنواهي الشرعية عند الصوفية، وقصروا في العبادات، وزادت مساحة الأذكار والأوراد اليومية.

٢- تساهل أعلام التصوف في كتاباتهم؛ إذ لم يعرضوا ما كتبوه على ميزان الكتاب والسنة الصحيحة، بل احتكموا إلى مجرد ذوقهم وحالهم(٢٩).

هذه الأجناس المختلفة في العادات والتقاليد، المتباينة في العقائد والمذاهب والأخلاق والأفكار، عاشوا جميعاً في صعيد واحد، تحكم كل جنس عقائده وعادته وأخلاقه، وتبعاً لهذا الاختلاف انقسم المجتمع إلى طبقات مختلفة في المرتبة الاجتماعية وفي السلطان والنفوذ والحكم، منها طبقة السلطان والنفوذ

٢٨- أبو زهرة، **ابن تيمية**، ص ١٣١.

٢٩- عقيلي، **تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية**، ص ٧١-٧٢.

والحكم، ومنها طبقة العلماء وعلى رأسهم العز بن عبد السلام والشيخ محي الدين النووي.

وكذلك تعددت الفرق وكثرت النوازع الدينية والعقائدية منها أهل السنة، ومنها الروافض والإسماعيلية، ومنها اليهود والنصارى، مما أدى إلى وجود الصراع بينهما فكانت كل فرقة تعمل لنصرة مذهبها ومعتقداتها، وتعمل من جانب آخر للقضاء على معتقدات غيرها(٣٠).

أما الحالة الاقتصادية، فكانت في كثير من السنين سيئة لقلة الاستقرار والأمن طيلة فترة المماليك، بسبب تنازع الأمراء فيما بينهم حول السلطة، ولتعاقب الغارات التي كان يشنها الصليبيون والتتار على بلاد الشام ومصر، فينجم عن ذلك الاضطراب والفوضى، وفي ظل الحرب تنتقص المحاصيل الزراعية وتتوقف التجارة، وتقطع الطريق، وتنتهب الأموال أو تضيع، كما أن سني الجفاف كانت تؤثر على المردود الزراعي العام، فترتفع الأسعار ويقع الاحتكار للمواد الأساسية، وقد كان لكل هذا أثر سيئ على عامة الناس لا سيما الفلاحين منهم؛ إذ كانوا لا يعفون من أداء الضرائب حتى في زمن الشدة والقحط.

هذه هي الصورة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في عصر ابن تيمية.

المبحث الثالث: الناحية العلمية والفكرية:

انتقلت الحركة العلمية بعد تخريب بغداد على أيدي التتار إلى حاضرتي الشام ومصر: دمشق والقاهرة، ولقد ساعد استقرار الحكم نسبياً في عهد المماليك، على ظهور نهضة علمية تمثلت في إقبال العلماء بهمة عالية على تدريس العلوم الشرعية خاصة وتأليف الموسوعات الجامعة فيها.

ولقد كانت المساجد في عهد المماليك لا زالت تقوم بدور مهم في تدريس العلوم الشرعية، وقد قام بعض أولي الأمر بإصلاحها وعمارتها، فنجد الأمير سلار نائب السلطنة يتولى عمارة جامع عمرو بمصر، والأمير بيبرس الجاشنكير يقوم بإصلاح وعمارة جامع الحاكم بالقاهرة، وقد كانت تقام بهذه المساجد حلقات كثيرة لإقراء العلم، كالتفسير والقراءات والحديث والفقه على المذاهب الأربعة، وبجانب هذه المساجد كانت تضاف أحياناً دور وزوايا وأروقة للتدريس ولإيواء الطلبة، كما هو الشأن بالنسبة لجامع عمرو والجامع الأزهر بالقاهرة، وكان يتولى التدريس بهذه المساجد كبار العلماء وفقهاء المذاهب.

أما المدارس فقد أنشأوا عدداً منها وقاموا برعايتها وحبسوا الأوقاف عليها، وأشهر هذه المدارس المدرسة العادلية الكبرى نسبة إلى الملك العادل، والمدرسة الظاهرية بالشام نسبة إلى الملك الظاهر،

٣٠- سعد صادق محمد، **شيخ الإسلام ابن تيمية**، ص ٣٢-٤٠.

وبمصر المدرسة الصلاحية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ والمدرسة الكاملية التي بناها الملك الكامل سنة ٦٢١هـ.

وهذه المدارس منها ما يكون عاماً في تدريس جميع العلوم الشرعية، ومنها ما يكون خاصاً بتدريس علوم معينة كالمدرسة الكاملية التي تختص بعلم الحديث، وقد وجدت بجانب بعض هذه المدارس مكتبات مهمة تضم مؤلفات في شتى العلوم كمكتبة المدرسة الكاملية التي حوت حوالي مائة ألف مجلد وهذه المدارس كان يقوم بالتدريس فيها كبار العلماء وقضاة القضاء.

إضافة إلى ذلك نجد الخوانق والربط، وهي عبارة عن دور يلجأ إليها فقراء الصوفية المنقطعون للعبادة، فتجرى عليهم الأرزاق من طعام وخبز ولحم، وهي تقوم بدور التعليم والتذكير والوعظ، ويتولى بعض شيوخ العلم بها تدريس العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه والتصوف... للطلبة المريدين.

ولقد ساهم العلماء بحظ وافر في تنشيط العلوم الإسلامية لا سيما تلك التي ترتبط بالوحي مباشرة، وصنفوا فيها كتباً كثيرة تتراوح بين البسط والاختصار، ولكن يلاحظ على هذا العصر كثرة التوسع في العلوم مع قلة العمق والابتكار.

ويرجع سبب ذلك إلى غلبة التقليد الأعمى على عامة العلماء، والتعصب للمذهب السائد سواء في الفقه أو العقيدة، فأغلب الفقهاء يتقيدون بمذهب إمامهم لا يكادون الخروج عنه حتى في فروعه(٣١).

حيث يقول ابن خلدون واصفاً لهذا العصر: "وقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ـ يقصد الأئمة الأربعة ـ ودرس المقلدون لمن سواهم، وسد الناس باب الخلاف وطرقه وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء، ولم يبق إلا نقل مذاهبهم، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول، واتصال سندها بالرواية... لا محصول اليوم للفقه غير هذا، ومدعي الاجتهاد في هذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده، وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأربعه"(٣٢).

أما التيارات المذهبية والفكرية السائدة في هذا العصر فيمكن تقسيمها إلى تيارين رئيسيين، هما أهل السنة والشيعة.

فبالنسبة لتيار أهل السنة، وهو مذهب جمهور المسلمين الذين يتولون عامة الصحابة ويتبعون السنن والآثار، نجدهم في باب العقيدة يرجعون إما إلى طريقة الأشاعرة أو طريقة الحنابلة، وفي باب الفقه

٣١- عقيلي، **تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية**، ص ٦٤-٧١.

٣٢- عبد الرحمن ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، دار الفكر، ج ١، ص ٤٤٨.

يتبعون خصوصاً المذاهب الأربعة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، ومذاهب أهل السنة عموماً.

وأما تيار الشيعة الذين يتولون أهل البيت خاصة، ويرفضون التلقي عن غيرهم، فنجد فيهم فرقاً مختلفة ما بين شيعة معتدلة وغلاة، وقد كان كثير منهم متأثرين بمنهج المعتزلة في باب العقائد لا سيما الزيدية المعتدلة، وفي باب الفقه يرجعون إلى مذاهبهم الخاصة كالمذهب الجعفري(٣٣).

هذه بعض الصور للحياة العلمية والفكرية التي كانت سائدة في عصر ابن تيمية، وكان لها تأثير على منهجه وتفكيره، وكان العبء ثقيلاً عليه من أجل إبعاد الناس عن عقائد الشرك والخرافات والأباطيل، وإرجاعهم إلى رحاب كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثالث: منهج ابن تيمية في العقيدة:

سار ابن تيمية في آرائه وعقيدته حسب منهج واحد لم يحد عنه، لأنه آمن بهذا المنهاج إيماناً لا يتزعزع عنه. فاعتمد ابن تيمية على:

١- القرآن الكريم:

وهو كتاب الله المنزّل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حيث كان دأبه رحمه الله الاستدلال على الأحكام عقدية أو فقهية أو غيرهما بآيات القرآن الكريم، والاستكثار من سياقها وهو عجب في انتزاعها، واستجلاء جلائل المعاني منها، ويتضح ذلك جلياً في كتبه التي تزخر بالأدلة من القرآن والسنة، ففي حديثه عن الأنبياء يقول في كتابه **الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**: "وأفضل أولياء الله هم الأنبياء، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾(٣٤) وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾(٣٥) ...إلخ"(٣٦).

ويظهر ذلك واضحاً في كلام ابن تيمية رحمه الله حيث يقول: "وبيّنٌ أن ما عند أئمة النظار ـ أهل

٣٣- عقيلي، **تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية**، ص ٦٤-٧١.

٣٤- سورة الشورى، الآية: ١٣.

٣٥- سورة الأحزاب، الآية: ٧.

٣٦- عبد السلام هاشم حافظ، **الإمام ابن تيمية**، ص ١٢٣.

الكلام والفلسفة ـ من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أبلغ وأكمل منها على أحسن وجه، مع تنزهه عن الأغاليط الكبيرة الموجودة عند هؤلاء"(٣٧).

ويقول: "ولهذا كانت الأقيسة العقلية البرهانية المذكورة في القرآن من هذا الباب كما يذكره في دلائل ربوبيته وإلهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وإمكان المعاد وغير ذلك من المطالب العالية السنية، والمعالم الإلهية التي هي أشرف العلوم، وأعظم ما تكمل به النفوس من المعارف"(٣٨).

والأمثلة على ذلك كثيرة نجدها في مؤلفاته العديدة التي ألفها في الرد على أعداء الإسلام والمسلمين، من اليهود والنصارى والفرق التي انتشرت في زمانه رحمه الله.

٢- الأحاديث الشريفة:

المأخوذة من السنة المطهرة التي وصف الله صاحبها بأنه لا ينطق عن الهوى ومن سار على هذا السبيل (سبيل الكتاب والسنة) لا يمكن أن يضل ولا يزيغ، ونتبين ذلك من كتبه الكثيرة، ومن ذلك يقول في كتابه **الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**: "...وأفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه الأولون والآخرون وصاحب لواء الحمد، وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة والفضيلة، الذي بعثه بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقاً، وأول الأمم بعثاً، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه" يعني يوم الجمعة "فهدانا الله له: الناس تبع فيه، غداً لليهود وبعد غد للنصارى"، وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا أول من تنشق عنه الأرض" وقال صلى الله عليه وسلم: "آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: أنا محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ..."(٣٩).

يقول ابن تيمية: "إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بالبلاغ المبين، فقام بتفصيل وشرح كل شيء كان الدين بحاجة إليه، فهل كان من الممكن أن يترك العقائد وأصول الدين وأساسه،

٣٧- أبو الحسن علي الحسني الندوي، **رجال الفكر والدعوة في الإسلام**، دار القلم، دمشق، ط١، ج ٢، ص ٢١٤.

٣٨- المرجع السابق، ص ٢١٤.

٣٩- عبد السلام هاشم حافظ، **الإمام ابن تيمية**، ص ١٢٤.

وذات الله تعالى وصفاته التي يتوقف على علمها معرفة الدين، وسعادة الإنسان ونجاته؟!

وكيف يترك كل ذلك مجملاً من غير شرح وتفصيل؟ وكذلك هل كان ممكناً أن يترك الكتاب الذي دعا الناس إلى تفهمه والتدبّر فيه مبهما مجملاً؟ يقول: "إن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ البلاغ المبين، وبين مراده، وأن كل ما في القرآن والحديث من لفظ يقال فيه: إنه يحتاج إلى التأويل الإصلاحي الخاص،الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، فلا بد أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد بين مراده بذلك اللفظ بخطاب آخر، لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل، ويسكت عن بيان المراد الحق، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه تعالى ما لم يبينه لهم، ويدلهم عليه، لإمكان معرفة ذلك بعقولهم، وأن هذا قدحٌ في الرسول الذي بلغ البلاغ المبين"(٤٠).

وكان يرى ابن تيمية أن الكمال كل الكمال في اتباع السنة، يقول عنه الحافظ سراج الدين البزار، وهو يقسم بالله: "لا والله ما رأيت أحداً أشدّ تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه".

ويقول العلامة عماد الدين الواسطي: "ما رأينا في عصرنا هذا من تتجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله، إلا هذا الرجل يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة".

ومن كلام ابن تيمية ما يدل على إقراره بالكتاب والسنة: "فإن السلوك هو الطريق التي أمر الله بها ورسوله صلى الله عليه وسلم من الاعتقادات والعبادات والأخلاق، وهذا كله مبين في الكتاب والسنة، فإن هذه منزلةُ الغذاء الذي لابد للمؤمن منه".

ويقول: "وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة"(٤١).

وهذا جزء يسير مما ذكر في مؤلفاته الزاخرة بالآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- نظرته إلى الإجماع والقياس:

٤٠- أبو الحسن علي الندوي، **رجال الفكر والدعوة في الإسلام**، ص ٢٩١.

٤١- المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦٥- ١٦٦.

ومع اعتقاده بأن "الكتاب والسنة" هما أصول الفقه والتشريع وهما منابع الاعتقاد والعبادة، نراه يعتقد كذلك في "الإجماع والقياس" ويؤمن بهما على أنهما من أصول الفقه والعبادة، فنجده يردهما إلى الكتاب والسنة، فكل أمر صحيح جاء في الإجماع لا بد وأن يوافق الكتاب والسنة، يقول في شأن الإجماع: "وأن الإجماع ـ إجماع الأمة ـ حق، فإنها لا تجتمع على ضلالة".

ثم يقول موضحاً أن الإجماع موافق لما جاء به الرسول فلا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلا وفيها بيان للرسول، ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس ويعلم الإجماع فيستدل به.

ويرى ابن تيمية أن القياس الصحيح هو ما وافق الكتاب والسنة وما صح عنده من أقوال الصحابة والتابعين وآرائهم(٤٢).

ويقول في كتابه **معارج الوصول إلى معرفة الأصول**: "فمن رأى شيئاً من الشريعة مخالفاً للقياس فإنما هو مخالف للقياس الذي انعقد في نفسه، وليس مخالفاً للقياس الصحيح الثابت في نفس الأمر"(٤٣).

٤- نظرة ابن تيمية إلى العقل:

لقد أثبت ابن تيمية أن مصدر العقائد والحقائق إنما هو الوحي والنبوة، والكتاب والسنة، أما العقل فليس إلا مؤيداً لها، وليس أساساً في أيّ حال. يقول في ذلك: "إن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه، ولا معطياً له صفة لم تكن له، ولا مفيداً له صفة كمال"(٤٤).

ويقول: "إن الله سبحانه وتعالى بين الأدلة العقلية، التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدّرُ أحدٌ من هؤلاء قدره، ونهاية ما يذكرونه جاء في القرآن بخلاصته على أحسن وجه"(٤٥).

ويقول أيضاً: "إن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الموافق لصريح المعقول، وإن ما بينه من الآيات والدلائل والبراهين العقلية في إثبات الصانع سبحانه، ومعرفة صفاته وأفعاله هو نهاية العقول، وإن خيار ما عند حذاق الأولين والآخرين من الفلاسفة والمتكلمين هو بعض ما فيه، لكنهم يلبسون الحق بالباطل، فلا يأتون به على وجهه"(٤٦).

٤٢- سعد صادق محمد، **ابن تيمية**، ص ٩٧-٩٩.

٤٣- حافظ، **الإمام ابن تيمية**، ص ٤٠.

٤٤- الندوي، **رجال الفكر والدعوة في الإسلام**، ص ٢٨٤.

٤٥- المرجع السابق، ص ٢٨٩.

٤٦- المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٨٩.

ما يترتب على منهج ابن تيمية في العقيدة:

أولاً: تقديم الشرع على العقل:

تعد هذه القاعدة المحور الذي يقوم عليه فكر ابن تيمية كله، وكان للقرآن الأثر الحاسم في تكوينه لأبعادها المختلفة والتي تقوم على أساس درء التعارض بين العقل والنقل، ويتبين ذلك من خلال رد ابن تيمية على السؤال الذي ورد إليه عما يراه إذا تعارض النقل والعقل، ولقد أجاب على ذلك من عدة وجوه، منها:

إن قوله: "إذا تعارض النقل والعقل إما أن يريد به القطعيتين، فلا تسلم إمكان التعارض حينئذ، وإما يريد به الظنين، فالمقدم هو الراجح مطلقاً، وإما أن يريد به أحدهما قطعي، فالقطعي هو المقدم مطلقاً، وإذا قدر أن العقلي هو القطعي كان تقديمه لكونه قطعياً، لا لكونه عقلياً فعلم أن تقديم العقلي مطلقاً خطأ، كما أنه جعل جهة الترجيح كونه عقلياً خطأ"(٤٧).

ومن خلال هذا الرد نخلص إلى أنه لا يأخذ إلا بالدليل القطعي أي الذي يصدق برهانه وتعلو أدلته، فمنطوق القاعدة عنده على النحو التالي: "إذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع، لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به، ولا العلم بصدقه موقوف على كل ما يخبر به العقل"(٤٨).

وهنا يبين مهمة العقل التي هي الإرشاد إلى صدق التنزيل والنبوة، ثم بعد ذلك إذا اختلف العقل مع الشرع فيكون ذلك قدحاً في العقل نفسه، لأنه سبق وأن زكى الشرع وبين صدقه... فكيف يختلف معه في النتائج؟ ويقول ابن تيمية بأن هناك حقيقتين: إحداهما شرعية أخذ بها الشارع الصادق وصدقها كامن في ذاتها فهو مطلق كما تتوالى الأيام والسنون والقرون في إثبات صدقه في الأعيان بعد أن كان في الأذهان، فحقائق الشرع ثابتة صدقها يظهر على مر الأيام والسنين والقرون...

والحقيقة الثانية عقلية أدى إليها اجتهاد العقل فهي لذلك نسبية الصدق.

ولقد كان القرآن هو المصدر الذي استقى منه ابن تيمية تقديمه الشرع أو النقل أو السمع على العقل، إذ يستدل على ذلك من قول الله تعالى وهو يصور كلام أهل النار: ﴿**وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا**

٤٧- محمود السعيد الكردي، **أثر القرآن على منهج التفكير النقدي عند ابن تيمية**، الدار الجماهيرية، ط ١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٨٦م، ص ٨٦.

٤٨- المرجع السابق، ص ٨٦.

فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٤٩).

وفي تقديم ابن تيمية للشرع على العقل يتفادى أفدح الأخطار التي وقع فيها الرازي ومن وافقه من الفلاسفة، وهي التأويل العقلي الذي يؤدي إلى نتائج قد تبعد عن الشرع تماماً(٥٠).

ثانياً: احترام العقل:

فهو يحترم العقل ويقدر له حقه ويعرف له مكانته فلم يطلق له العنان يصول ويجول أكثر من القدر اللازم، ليطغى بتفكيره على نصوص القرآن والسنة، كما أنه لا يغفل حقه في التفكير، ولم يهمل شأنه إلى القدر الذي عطله عن ممارسة وظيفته التي خلقه الله لها، ولم يتابع المعتزلة الذين كانوا أول من أشاد بالعقل من الفرق الإسلامية فجعلوه في أمر الإيمان والعقيدة، وكان هذا سبيلاً لهم إلى تأويل كثير من نصوص القرآن والحديث عند تعارضهما في الظاهر مع العقل... لقد لجؤوا إلى التأويل، لتتفق الآيات والأحاديث مع ما يؤمنون به من قضايا العقل(٥١).

ويرى أن العقل في الإنسان هو مناط التكليف، لأن الإنسان بدون العقل لا يساوي شيئاً، ومن هذا يتضح أن العقل أعظم المنح الإلهية الكبرى، التي وهبها الخالق سبحانه لعباده من البشر.

ويرى أن العقل يثاب حسب اجتهاده، كما جاء في الحديث: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر"(٥٢)، فأجر المخطئ هنا ناتج عن إعماله عقله، حسب الطاقة البشرية، وهذا من إعجاز الإسلام، إذ إنه يكرم المخطئ دون عمد، لأنه فكر بعقله.

ثالثاً: الحجة العقلية الصريحة لا تناقض الحجة الشرعية الصحيحة:

يرى ابن تيمية أنه لا تعارض بين المعقول الصريح، والمنقول الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أي لا تعارض بين ما وصل إليه العقل السليم، وبين ما ثبت نقله عن رسول رب العالمين، بطريق صحيح لا ريب فيه.

ويرى ابن تيمية أنه ليس هناك مشكلة تسمى "مشكلة تأويل" تحتاج إلى حل، ولا يرى وجود تعارض بين الصحيح وطريق العقل الصريح.

٤٩- سورة الملك، الآية: ١٠.

٥٠- المرجع السابق، ص٨٦-٨٩.

٥١- سعد صادق محمد، **ابن تيمية**، ص ٩٩.

٥٢- أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم: ٧٣٥٢.

والمنقول الذي يخالف العقل لا يكون إلا حديثاً موضوعاً أو نصاً آخر لا يدل دلالة قاطعة على ما يراد الاستدلال به عليه فيقول في ذلك: "المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة لا يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل نقيضها الموافق للشرع، وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد، وغير ذلك، ووجدت بالعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه، إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول"(٥٣).

ويوضح هذا كتابه **موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول** أو **درء تعارض النقل والعقل** على دلالة ما يقصده، وهو يقصد بالمعقول البديهيات العقلية والأوليات الكلية، وعلى هذا النحو يمضي مؤكداً صحة رأيه، موجهاً الأنظار إلى الأصول العقلية في القرآن والحديث لبيان غناها الذاتي في البرهنة على صحة كافة القضايا التي تعرض لبحثها.

وتظهر جدة أفكاره في القوالب الكلامية والفلسفية والمنطقية، متابعة منه لمناهج عصره في الجدل والحجاج العقلي، ومعارضاً لمنهج التأويل الكلامي الذي يرجح التفسير العقلي إن ظهر تعارض بين النقل والعقل في زعم المتكلمين، حيث يرى أن هذا التعارض مصدره وهم خاطئ، إما بسبب عدم العلم بالنص أو خطأ الفهم، وثمة سبب آخر لا يسلم بصحته منذ البداية، أي تلك الأصول الكلامية التي يبنون عليها نتائجها.

وإذا طالعنا كتابه المشار إليه آنفاً **موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول** نراه يدور حول إثبات أن دلالة القرآن شرعية عقلية، فهي شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها، وعقلية لأنها تعلم صحتها بالمعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفطرهم التي فطروا عليها من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين، واختلاف المختلفين اختلاف النوع لا اختلاف التضاد ومثل كون الجسم الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وتظهر دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب، إذ قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(٥٤) وقوله عز وجل:

٥٣- سعد صادق محمد، **ابن تيمية**، ص ١٠١-١٠٢.

٥٤- سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾[٥٥]، والأمثال هي أقيسة عقلية ولم يَكِلُ ابن تيمية من التنبيه على أن القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد، ودلائل هذه المسائل، كما يقرر أنه ليس لأحد الخروج عن الشريعة في شيء من أموره، بل كل ما يصلح له فهو في مشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته وغيرها، ولعل سبب الخروج على هذه القاعدة الشاملة يرجع إلى تجزئة الطوائف والفرق الإسلامية المختلفة للشريعة، وعلى هذا النحو فقد جعل المتكلمون بإزاء الشرعيات العقليات أو الكلاميات، وجعل الصوفية بإزائها الذوقيات والحقائق، والفلاسفة جعلوا بإزاء الشريعة الفلسفة، والملوك جعلوا بإزاء الشريعة السياسة، وأما الفقهاء والعامة فيخرجون عما هو عندهم الشريعة إلى بعض هذه الأمور، أو يجعلون بإزائها العادة أو المذهب أو الرأي[٥٦].

رابعاً: رأيه في التأويل:

إن رأيه في التأويل يتفق مع عقيدة السلف، حيث كان يرى أن التأويل عند السلف الصالح، يختلف عنه عند المتكلمين: المعتزلة والفلاسفة والمتصوفة.

فالتأويل عند رجال السلف: هو التفسير وتوضيح المراد من نصوص القرآن الكريم، كما علمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الرسول لم يترك لهم شيئاً من القرآن من غير بيان، ومن غير المعقول أن يقال: أن الرسول لم يبلغ كل ما أنزل إليه من ربه.

وهذا التأويل يختلف عن التأويل الذي لجأ إليه الفلاسفة والمتصوفة وأهل الكلام، حيث هو عندهم "صرف اللفظ عن المعنى المدلول عليه، المفهوم عنه إلى معنى آخر يخالف ذلك" أي صرف اللفظ عن معناه الظاهري إلى معنى آخر خفي، حيث أن هذا النوع من التأويل لم يغب عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد بين الرسول كل موضع يجب فيه ترك المعنى الظاهري[٥٧].

إذاً ركز ابن تيمية كل جهوده على إثبات أن مصدر العقائد إنما هو الكتاب والسنة والوحي والنبوة وأن نصوص الكتاب والسنة هي المقياس الأصيل في هذا الموضوع إنه دعا إلى الإيمان بهذه الفكرة طول عمره، وقد لا يخلو أي كتاب من مؤلفاته من هذه الدعوة.

٥٥- سورة الروم، الآية: ٥٨.

٥٦- هنري لاووست، **نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع**، ترجمة: محمد عبد العظيم، دار الأنصار، القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ/ ١٩٩٧م، ج ١، ص ٩٨-١٠٠.

٥٧- سعد صادق محمد، **ابن تيمية**، ص ٩٩-١٠١.

الفصل الرابع: آثار منهج ابن تيمية في العقيدة على المجتمع:

ولإيضاح هذا الجانب من حياة ابن تيمية لابد لنا من ذكر بعض الحوادث ليتبيّن لنا أثره في المجتمع الذي عاش فيه:

أولاً: أثره في إسلام بعض اليهود والنصارى:

ومن ذلك ما ذكره البزار: أن الشيخ رضي الله عنه في حال صغره، كان إذا أراد المضي إلى المكتب يعترضه يهودي كان منزله في طريقه بمسائل يسأله عنها، لما كان يلوح عليه من الذكاء والفطنة، وكان يجيبه عنها سريعاً حتى تعجب منه، ثم إنه صار كلما اجتاز به يخبره بأشياء مما يدل على بطلان ما هو عليه، فلم يلبث أن أسلم وحسن إسلامه، وكان ذلك ببركة الشيخ على صغر سنه.

وأيضاً ما أورد الحافظ ابن كثير في ترجمة الحكيم الفاضل البارع بهاء الدين عبد السيد ابن المهذب إسحاق بن يحيى الطبيب الكحال المتشرف بالإسلام، ثم قرأ القرآن جميعه لأنه أسلم على بصيرة، وأسلم على يديه خلق كثير من قومه وغيرهم، وكان مباركاً على نفسه وعليهم.

وكان قبل ذلك ديان اليهود فهداه الله تعالى، وتوفي يوم الأحد سادس جمادى الآخرة، ودفن من يومه بسفح قاسيون.

أسلم على يدي شيخ الإسلام ابن تيمية لما بين له بطلان دينهم وما هم عليه وما بدلوه من كتابهم وحرفوه من الكلم عن مواضعه رحمه الله(٥٨).

وممن أسلم من النصارى إبراهيم بن داود بن عبد الله الآمدي ثم الدمشقي برهان الدين، نزيل القاهرة، مات أبوه وهو صغير على دين النصرانية، فحمله وصيه الشيخ عبد الله الدمشقي، وأحضره مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فأسلم على يده وصحبه، ثم صحبه أصحابه وأخذ عنهم(٥٩).

ثانياً: محاربته البدع في المجتمع:

ومن ذلك أمره بقطع صخرة كانت بنهر قلوط تزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها مستطيراً.

وغيرها من المواقع التي كانت تزار ويوجد بها من الأصنام مثل العمود المخلق عند درب النافدانيين والبلاطة السوداء المتبرك بها في المسجد الذي خلف "قبة اللحم" في "العلافين" وصخرة

٥٨- العبادي، **سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية**، ص ٤٤-٤٥.

٥٩- المرجع السابق، ص ٤٥.

عظيمة يتبرك بها في مسجد النارنج، وكسر الأنصاب المعظمة والشهيرة بدمشق[٦٠] وغيرها من المواضع التي سخّر الله لها شيخ الإسلام لتخليص الأمة الإسلامية منها ومن كل شرك.

ثالثاً: محاربته للعقائد والأفكار المضادة للكتاب والسنة:

لقد كان عصر ابن تيمية عصراً انتشرت فيه الفتن والأهواء وكثرت فيه الفرق والمذاهب التي غيرت معالم الدين، حتى كادت أن تغطي حقائق الإسلام وصدقه وبهاءه، فجاء شيخ الإسلام ليرد إلى الإسلام نضارته ويدحض الباطل ويكشف زيغ الفرق الباطلة التي أرادت أن تشوه العقائد الأساسية للإسلام وشريعته السمحاء، وهاجم جميع الفرق والمذاهب المنحرفة عن الكتاب والسنة القائمة في عصره.

ولقد اختص الأشعرية من ذلك بالنصيب الأوفر، كما أنه ناقش مناهج الفلاسفة والمتكلمين في بحث الشئون الإلهية ونقدها، وبين أن المناهج التي سلكها هؤلاء وأولئك كانت بعيدة كل البعد عن الصواب وأنهم أبعد الناس عن معرفة الإلهية، وأن أكثر كلامهم فيها خبط وتخليط، لأنهم لم يستضيئوا بنور النبوة، فمزجوا الحق الذي أخذوه من الدين بالباطل الذي بنوه على أصولهم الفلسفية الفاسدة، وحاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة على حساب الدين، فعمدوا إلى النصوص فأولوها بتأويلات بعيدة ومتكلفة حتى تتلاءم مع قواعدهم الفلسفية.

وهكذا الأشاعرة المتأخرون لجأوا إلى التأويل في الصفات الخبرية كغيرهم من الفلاسفة والمعتزلة، ويرى ابن تيمية أن مناهج الفلاسفة والمعتزلة والأشعرية في العقيدة بعيدة عن الحق لأنهم جميعاً سلموا بقضية عامة، وهي أنه إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل، فحكموا عقولهم في مسائل العقيدة وتلاعبوا بالنصوص، فإذا كانت ثابتة بحيث لا يمكن ردها جعلوها من المتشابه، وإلا بادروا إلى إنكارها.

ولكن الأشاعرة في نظره خير من المعتزلة ومن عداهم من سائر الفرق الأخرى، لأنهم يوافقون السلف في كثير من المسائل، كما أنهم ردوا على بدع المعتزلة والجهمية والرافضة، وبيّنوا كثيراً من تناقضاتهم وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة.

وقد تصدى لبيان اتجاهه المبني على الكتاب والسنة في العقيدة والأسماء والصفات والتمسّك بالكتاب والسنة في مقدمة كتابه **الحموية** وأوضح فكرته بكل تفصيل.

٦٠- المرجع السابق، ص ٧٨- ٨٤.

ولقد قام بكشف زيغ الصوفية الضُّلال الذين أغووا الأمة وأضلوها وجاءوا بعقائد وأعمال وأفكار وأخيلة لا تمت إلى الإسلام بصلة، ومن تلك الأباطيل والضلالات التي حاربها: تنسك الهنود، وعقيدة الحلول والاتحاد، ومذهب وحدة الوجود، وتقسيم الدين إلى الظاهر والباطن وفتنة الرموز والأسرار، والعلم الدقيق، وسقوط التكاليف الشرعية عن الكاملين والواصلين واستثناؤهم عن الأحكام الشرعية، فقد كانت هذه الأفكار والمعتقدات دخلت فيما سمي بالتصوف.

ومن أعظم ما ألّف شيخ الإسلام في هذا الخصوص هو كتاب **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، فقد فصل فيه القول في الولاية الرحمانية وبين صفاتها من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، وفرق بين ذلك وبين الولاية الشيطانية الصوفية التي تعتمد على الشعبذات والدجل والكذب وأكل أموال الناس بالباطل والسماع والغناء والرقص، والبدع المنكرة في الدين والتظاهر بالصلاح والتقوى(٦١).

خامساً: تجديده لأصول العقيدة:

إن إصلاح التصور العقدي هو أهم هدف شغل بال ابن تيمية واستحوذ على تفكيره، فبذل جهداً كبيراً لتصحيحه، لما له من الأهمية القصوى، إذ هو أساس العمل في المنهج الإسلامي ولما له من شبه بسبب كثرة التيارات الكلامية التي خاضت فيه بالحق والباطل.

وقد بين أن خطأ المتكلمين في معالجة قضايا العقيدة، يكمن في ناحيتي: التصور والمنهج، فمن ناحية التصور، يرى أن تصورهم للعقيدة كان قاصراً من الناحية النظرية، إذ ركزوا كلامهم على إثبات الربوبية وما تقتضيه من الصفات، وظنوا أن ذلك هو غاية التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزله في كتبه، وهذا غلط، لأن الأمم التي بعث الله إليها الرسل لم تكن تنكر وجود الله تعالى وصفاته، وإنما كانت تشرك معه غيره فلا تفرده بالعبادة الخاصة، والطاعة التامة.

فالمتكلمون في نظره لم يفرقوا بين الإقرار بالربوبية والإيمان بالألوهية، ولا فهموا حقيقة العقيدة الصحيحة التي جاء بها القرآن والسنة، وقد أوغلوا في الجانب النظري، حتى استنفد منهم جهداً كبيراً، في حين أصيب الجانب العلمي بالضمور التام فكانوا بحق أهل كلام لا غير، كما أصيب الجانب الروحي بالاضطراب، فكانوا أكثر الناس شكاً وارتياباً، حرموا يقين العلم وطمأنينة النفس.

٦١- عبد الرحمن الفريوائي، **بحوث الندوة العالمية عن شيخ الإسلام**، بحث بعنوان: "شيخ الإسلام ابن تيمية حامل راية الكتاب والسنة"، مقدم من محمد لقمان السلفي، ص ١١١- ١١٧.

وأما من ناحية المنهج، فقد قصروا فيه أيضاً، إذ ظن كثير منهم أن العقل هو الوسيلة الوحيدة لإثبات مسائل العقيدة، وأن النقل هو مجرد خبر الصادق، ليس فيه دلائل عقلية قاطعة، فباب العقائد إنما ينبغي الاستدلال فيه بالأدلة العقلية اليقينية، وأما ظاهر النقل فليس فيه دلالة قطعية لقيام المعارض له لا سيما العقلي.

فالمتكلمون سلكوا منهج التأويل العقلي لظواهر النصوص باعتبار أنه يستحيل حملها على ظاهرها في نظر العقل، وقد ناقش ابن تيمية هؤلاء في الأساس الذي انطلقوا منه ألا وهو قطعية الدليل العقلي، وظنية الدليل النقلي، فبين أن ما ادعوا قطعيته ليس له ميزان ثابت محدد يوزن به الحق والباطل يحتكم إليه الناس عند الاختلاف، ولو كان العقل معياراً مضبوطاً لما اختلف الناس فيه وهؤلاء المتكلمون أنفسهم اختلفوا اختلافاً بيّناً في الصفات، فما يثبته بعضهم من الصفات باعتبارها موافقة لدلالة العقل، ينفيه بعضهم الآخر باعتبار أن دلالة العقل تمنعها، فصارت كل طائفة تبطل ما أقرته الأخرى، مما يدل على أن العقل إما أنه غير صالح ليكون ميزاناً للحق وإما أن هؤلاء قصروا في فهم دلائل العقل القطعية، وهذا الفرض الأخير هو الصحيح.

فالمتكلمون أخطأوا منذ البداية في فهم الدليل العقلي والدليل النقلي، فجعلوا أحدهما قطعياً البتة والآخر ظنياً البتة، وليس الأمر كذلك، فكلاهما يكون تارة قطعياً وتارة ظنياً، كما أخطأوا في جعل العقل هو الطريق الوحيد لإثبات العقائد، واحتاجوا لإثبات وجود الله واليوم الآخر والنبوات عن طريقه، فتشعبت بهم المسالك، واشتبهت عليهم المقدمات، وتناقضت النتائج، فصار كثير من السالكين لهذا المنهج ينقطعون دون بلوغ غايته، وغلبت عليهم الحيرة والاضطراب حتى اعترف بذلك بعض أئمتهم والسبب في ذلك هو أنهم عارضوا ظاهر الوحي بشبهات عقلية حسبوها حقائق يقينية وتعسفوا في تأويل نصوص الشارع، وحملها على معانٍ مخالفة لمراده.

ومجمل القول فإن المتكلمين في نظر ابن تيمية لم يقوموا بواجب بيان أصول العقيدة الصحيحة التي جاء بها الدين ولم يكفوا المسلمين مؤونة الرد على الملحدين، فلا الإسلام نصروا ولا أعداءه كسروا، وبالمقابل نجده يقر منهج السلف في إثبات قضايا العقيدة لأنهم يتبعون طريقة القرآن في الاستدلال ويجرون النصوص على ظاهرها اللائق بالحقائق الغيبية من غير تكييف ولا تأويل[٦٢].

٦٢- عقيلي، **تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية**، ص ٨٩-٩١.

فهو لذلك عمل على الإكثار من التصنيف في الأصول فضلاً عن غيرها من بقية العلوم، وعندما سئل عن سبب ذلك أجاب بما نقله عنه الحافظ البزار: "بأن الفروع أمرها قريب، ومن قلد المسلم فيها من العلماء جاز له العمل بقوله ما لم يتيقن خطأه.

وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء، كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية والمعطلة والمجسمة والمشبهة والروافدية والكلابية والسليمية، وغيرهم من أهل البدع، قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية، الظاهرة على كل دين العليّة، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق، أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده، فلما رأيت الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم، وقطع حجتهم وأضاليلهم، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم ويزيف دلائلهم، ذباً عن الملة الحنيفية والسنة الصحيحة الجلية، ولا والله ما رأيت فيهم أحداً ممن صنف في هذا الشأن وادعى علو المقام، إلا وقد ساعده بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام، وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم حكميات وعقليات، وإنما هي جهالات وضلالات.

وكونه التزمها معرضاً عن غيرها أصلاً ورأساً، فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم، فتخبط فيها خبط عشواء، ولم يفرق بين الحق والباطل، وإلا فالله أعظم لطفاً بعباده، أن لا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبته، ويبطل الباطل وينفيه، لكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال، وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزاناً يزن به العبد الواردات، فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق وما هو من قبيل الباطل، ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده فكيف يقال إنه مخالفٌ لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟! هذا باطل قطعاً، يشهد له كل عقل سليم، لكن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾"(٦٣).

ثم قال: هذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جُلَّ همي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت

٦٣- سورة النور، الآية: ٤٠.

مقالاتهم وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية(٦٤).

هذا جزء يسير مما قام به ابن تيمية من أعمال، وكان لها الأثر الكبير في محاربة البدع والضلالات، ونشر الفضائل في مجتمع كثرت فيه الفرق والملل وأعداء الإسلام، الذين يعملون بالليل والنهار لطمس معالم الإسلام، والناظر إلى حياة هذا العالم الجليل يجد الكثير من المواقف التي تدل على عظم ما قام به من أعمال، بذل فيها نفسه وماله في سبيل الله، وتحمل فيها الكثير من المشقة والمتاعب لإصلاح هذا المجتمع والنهوض به من جديد.

الخاتمة:

فبعد هذه الجولة القصيرة في حياة هذا العالم الجليل نخلص إلى:

١- أن ابن تيمية قد ولد في أسرة ذات علم، وأنه قد نشأ في مجتمع مليء بالفرق والملل، مجتمع كثر فيه الفساد والزيغ، فوقع على عاتقه الجهد الكبير لتخليص الأمة من هذه الرذائل.

٢- كان له سبق التجديد في تحقيق التوحيد بعد طول غياب، وحماية جنابه، حيث حارب كثيراً من البدع والمعاصي المنتشرة في المجتمع الإسلامي، وعمل على إعادة نشر الدين من جديد.

٣- وله سبق التجديد في الفقهيات وهي لا تحصى كثرة.

٤- له سبق التجديد في علوم المنطق والفلسفة، هدم من خلال ردوده عليهم عدداً من أقوالهم وقواعدهم.

٥- ومع ذلك فقد قابله الخصوم بافتراءات كثيرة من خلال دعاوي كاذبة مثل: دعوى بغض النبي صلى الله عليه وسلم، ودعوى أنه يمنع زيارة القبور وإنما منع البدعية لا الشرعية، ودعوى أنه يمنع من زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وإنما منع شد الرحال إليه، ودعوى أنه يوالي النصارى.

٦- تعرض للسجن أكثر من مرة ومع ذلك صبر وجاهد في سبيل الله من أجل رفع راية الإسلام.

****

٦٤- إسلام بن عيسى الحسامي العبادي، **سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، وحكاياته مع أبناء زمانه**، دار ابن كثير، عمان، الأردن، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٤٠-٤٢.